

عن (أغاني مهيار الدمشقي) واستلهام التراث عند أدونيس

أ.د. راتب سكر*

كان أدونيس في السابعة والعشرين عندما أصدر ديوانه الأول "قصائد أولى" عام ١٩٥٧، يليه ديوانه الثاني "أوراق في الريح" عام ١٩٥٨، المسكونين بغنائية رومانسية أمينة على توحيدها بحزن يفيض بمفردات طبيعة بكر، ظل يدفق موجات فيضه النورانية، ذات الأفاق الصوفية العالية، في مسارات تجربة (أدونيس) الشعرية اللاحقة، يتوارى بين سطورها حنين رومانسي إلى أم صوفية بعيدة، ويرن على جناح من ذلك التواري قول (شارل بودلير): "إن الرومانسية تركت فينا جراحا، سوف لن تندمل!".

وبعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ - أي في العام ١٩٦١ - أصدر أدونيس ديوانه الثالث (أغاني مهيار الدمشقي)، مكملا نهجه في استلهام التراثين العربي والعالمي، على جناح من تقانات الرمز والقناع والمرآة والتناص وغيرها، تلك الأسس الجوهرية التي بشرت بها دواوينه الثلاثة الأولى، لتتأكد مسارا أساسا لتجربته الشعرية اللاحقة كلها.

وحين تفتتح عتبة العنوان في ديوان (أغاني مهيار الدمشقي) تجده موكبا من أغان، لائقة باستحضار شخصية شاعر غنائي مهم من التراث، هو (مهيار الديلمي - ت ١٠٣٧م)، فتهادى القراءة منذ مفتحها، على جناح معرفي يستعيد نصوصا غائبة من سيرة وقصائد، (مهيار) ذلك الشاعر، وتلميذ (الشريف الرضي) في بغداد، الذي تفتح له صفة (الدمشقي) فرصة ذهبية لوحدة جوهرية مع ذات الشاعر (أدونيس) من جهة، وجغرافية الوجود واتجاهات مكوناته من جهة أخرى. تلك الفرصة ستجد في استلهام شخصيات نوات إشعاعات وجدانية وفنية ومعرفية عميقة في الثقافة العربية، مثل: (عمر بن الخطاب، وجبله بن الأيهم، وأبي نواس، والحلاج، وبشار بن برد)، وشخصيات ثقافية إغريقية مثل: (أورفيوس، وأوليس، وسيزيف)، وشخصيات دينية مثل: (آدم ونوح)، حوامل فنية مناسبة لتجلي بريق وحدة جوهرها.

في وجهه الأصفر في يديه.
مُتُّ مثلنا ضِعُ معنا يا آدم الحياة
أُنحِرُ بنا إليه
توأمنا وتوأم النهار»

إن إشراق انبثاق «آدم الحياة»، في صورة مهيار، بعد «موته مثلنا، وضياعه معنا»، يضمّر رؤيا تموزية، تؤسس بها التوأمة، في مآل النص الشعري، وشاطئ ختامه، «توأمنا وتوأم النهار»، ولادة جديدة، سريرها الفكري جوهر وحدة الوجود، وأراجيح فنّها العالي في وحدة الشكل والمضمون منبثقة من مرايا التوحد والتماثل والتوأمة.

لقد تعالقت تقانات استلهام التراث في ديوان «أغاني مهيار الدمشقي»، بأثقة بسر جوهرى من أسرار مكانة (المرأة) بينها، تلك المكانة التي ستنبور في دواينه اللاحقة، بعد أن بدا حضور مهيار المنبثق من جوهر الوجود والذات في وحدة مطلقة، يسوغها مفهوما التماثل والتوأمة، بصياغتهما رؤية النص الشعري لذوات مكوناته في مقابلة الوجود والعالم، بمثل قول الشاعر:

« الليلُ أبوابٌ وساحرات
في رتتي مهيارُ

ولست أعني بذلك أن نعود الى الماضي، بل أعني أن نعيد تقويم هذا الماضي جذرياً و كلياً، إنني أدعو بتعبير آخر- الى استبصار في حركية التاريخ الثقافي العربي يكشف عن تنوعها وتعددتها .
ولست أقصد في عملي هذا أن أبشر بالكتابة على غرار؛ المكبوت المقموع- فكراً وشعراً- أو أن أقول إنه يمثل نماذج ريادية للحدثة أو للإبداع، أو أن أدين ماكان سائداً، وإنما أقصد أن نستوعب موروثنا الثقافي بجوانبه كلها، ونتمثله- تحليلاً ونقداً- بنظرة جديدة .

الثابت والمتحول ٣٢/١

طبعة دار الساقى، بيروت ١٩٩١م

